

الأدب في عصري الطوائف والمرابطين

ازدهر الأدب العربي في هذين العصرين ازدهاراً عظيماً، لم نشهد له نظيراً في العصور التي سبقتة وربما في العصور التي تلتها، ذلك لأن عصر الطوائف والمرابطين، كان يمثل نضج الثقافة، وينع ثمرتها التي تعهدتها الرعاية والعناية، مدة ثلاثة قرون، وكان حظ الأدب من هذه الثقافة وافراً، وسهمه مصيباً.

لذلك كرست دراسات كثيرة^١ لدراسة الحياة الأدبية في هذين العصرين، والكشف عن مناظ الإبداع والتفوق فيهما، سواء في دراسات تناولت الأدب بشكل عام، أم دراسات اختصت أحد طرفي الأدب شعراً أم نثراً، أم دراسات كرست للأدباء أنفسهم شعراء وكتّاب.. وبين أيدينا منها عدد جم، وكثرة كاثرة، تؤلف نسبة كبيرة، بين ما كرسه الباحثون لدراسة الأدب الأندلسي في عصوره المختلفة.

أنه عصر التألق الأدبي، عصر جهابذة الأعلام الأندلسيين وعمالقتهم، الذين عرفنا الأدب الأندلسي من نتاجاتهم المتنوعة المتميزة، الخصبة المغدقة، حتى قرر عدد من الدارسين أن الحياة الأدبية في هذا العصر، كانت أزهى وأزهر منها في كل عصر آخر من عصور العرب في الأندلس،^٢ كيف لا؟ وقد أنجب هذان العهدان عدداً كبيراً من الشعراء منهم: ابن دراج القسطلي (ت ٤٢١هـ) متنبى الأندلس، وابن شهيد الأندلسي (ت ٤٢٦هـ) الأديب الذي تفتق خياله عن رسالة التوابع والزوابع، وأبا جعفر بن الأبار الخولاني الإشبيلي (ت ٤٣٣هـ) صاحب المذهب الطريف في الغزل، وابن زيدون (ت ٤٦٣هـ) ذو الوزارتين، الذي لا تكاد نعرف الأدب الأندلسي بمعزل عن أدبه شعره ونثره، وابن عمار الأندلسي (ت ٤٧٧هـ) الذي غالى بعض الأندلسيين فوصفه بأبي الطيب،^٣ وابن الحداد (ت ٤٨٠هـ) صاحب نويرة، وابن وهبون المرسي (ت ٤٨٤هـ) الشاعر الذي منحه المعتمد بن عباد على بيتين ألف مثقال من الذهب، والمعتمد بن عباد (ت ٤٨٨هـ) شاعر المجد الباذخ والذل المستكين، وابن اللبانة الداني (ت ٥٠٧هـ) شاعر الوفاء وسموئل الشعراء وريحانة الأمراء.^٤

واتصلت الظاهرة الشعرية ونتاجها الضخم في عصر المرابطين فاستمر عطاؤهم حيث تلقى ابن عبدون التجيبي (ت ٥٢٠هـ) صاحب المراثاة المشهورة في بني الأفطس، وابن حمديس الصقلي (ت ٥٢٧هـ) أشهر شعراء الأندلس وصقلية، والشاعر الحكيم أبو الصلت الداني (ت ٥٢٩هـ)، وابن الزقاق البلنسي (ت ٥٣٠هـ) ابن أخت شاعر الطبيعة ابن

١ ينظر على سبيل المثال: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د. إحسان عباس. البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، د. سعد إسماعيل شلبي. والشعر في ظل بني عباد، د. محمد مجيد السعيد. وإشبيلية في القرن الخامس الهجري، د. صلاح خالص.

٢ الشعر الأندلسي، كنون، ٣٧٧.

٣ المعجب، ١٦٩.

٤ المغرب، ٤١١/٢.

خفاجة الأندلسي (ت ٥٣٣م)، والأعشى التطيلي (ت ٥٤٢م)، وعملاق الزجل الأندلسي ابن قزمان (ت ٥٥٥م)، والشاعر العفيف الرصافي البلنسي (٥٧٢م).

ولم يقتصر قول الشعر على فئة معينة من الشعراء. الشعراء المتفرغين لقوله. بله عمّ قرضه على طبقات المجتمع الأندلسي في هذا العصر ومنهم فلاح إشبيلية على نحو ما يشير إلى ذلك ياقوت،^١ وذوي المهن، كابن القزاز صاحب الموشحات والجزار السرقسطي الذي تقلب بين الجزيرة وقول الشعر، فقد استولى على أفئدتهم فكان الفقيه والعالم والمثقف، كلهم يتعاطى نظم الشعر ولم يقتصر قول الشعر على الرجال بل وجدنا المرأة الأندلسية ذات نصيب وافر فيه، وقد عبر عن هذه الحقيقة استأنلي بول فقال: "ويظهر أن العالم الإسلامي اتجه بروحانيته إلى آلهة الفنون فمن الخليفة في عرشه إلى النوتي في سفينته، كنت تسمع النظم الفائق في مشاهد الأندلس وجمال مدنها".^٢

وقد واكب هذا التقدم في الشعر تقدم آخر في النثر على نحو ما سنتناوله حين حديثنا عنه، ونشهد عدداً كبيراً من شعراء الأندلس يلقب بذوي الوزارتين، وقد ترجم ابن خاقان لعشرة منهم في قلائده وهم الذين جمعوا بين لواني الشعر والنثر.

ومن الحقائق البديهية أن تنتعش في مثل هذه الظروف الفنون القولية وفي مقدمتها الشعر ولكن البيئة الأندلسية طبعت تلك الموضوعات بطابعها حتى وجدنا فنوناً من الشعر تحظى من العناية والاهتمام دون فنون أخرى وتصدر في هذا المقام المديح فلم ينتعش في عصر أندلسي آخر انتعاشه في عهد ملوك الطوائف حيث بلغ الأمر بالشقندي، وهو في مقام المنافرة، إن قال بعد أن عدد ملوك طوائف الأندلس: "كل منهم قد خلد فيه من الأمداح، ما لو مدح به الليل لصار أضواً من الصباح...".^٣

وبلغ من ثقة الشاعر ببضاعته، وعدم اكتراثه بالممدوح. حتى لو كان مثل المعتضد. أن حلف شاعر ألا يمدح أحداً منهم بقصيدة إلا بمائة دينار فلما كلفه المعتضد. وهو من هو سطوة وهيبة. أبي حتى يعطيه ما شرطه في قسمه،^٤ ولم يكن الغزل أقل حظوة منه وكذلك الشأن في الرثاء والزهد والتصوف كما سنبسط القول فيها.

ولا يفوتنا أن نشير إلى عناية الشعراء بموضوعات أخرى متصلة بالموضوعات التي تقدمت وقد وقفت الدراسات الحديثة عندها، ومنها شعر الجهاد والمعارك الإسلامية وشعر الآداب والأخلاق الإسلامية.^٥

وأما الاتجاهات الجديدة في شعر هذا العصر فقد كُرسَتْ لثلاثة موضوعات رئيسة نقف عندها وقفة متأنية فيما بعد، وهي شعر الطبيعة وشعر رثاء المدن والممالك،

١ معجم البلدان، لياقوت، ٣٥٧/٣.

٢ قصة العرب في أسبانيا، ١٣٣.

٣ النفع، ١٩٠/٣.

٤ النفع، ١٩٠/٣.

٥ ينظر الاتجاه الإسلامي، ٢٠٩، وما بعدها، ٢٦٣، وما بعدها.

وشعر الغربية والحنين، والجديد مسألة نسبية: نريد بها زيادة مقدار الموضوع وتنوعه وتفرعه مع البراعة في الصبغ والصوغ كما يتصل الجديد بمدى تفاعله العميق مع البيئة الأندلسية وهو ما نجد آثاره واضحة في هذه الموضوعات إلى حد بعيد.

لقد حاول الرافعي أن يوضح مناط تفوق الأندلسيين في أشعارهم على أهل الحجاز والعراق والشام وجعل ذلك سراً كامناً في خيالهم، يدركه ولا يستطيع أن يحده: "ولكن لا يستقبلك في شعرهم ما يستقبلك في شعر الأندلسيين من الشعور الروحي الذي لا سبيل إلى تصويره بالألفاظ، والذي نتبين معه أن الفرق بين الخياليين كأنه الفرق بين البلادين في التبعية والاستقلال"^١ ويعود في موضع آخر ليؤكد دور الخيال في غير أشعار الأندلسيين: "ومن هذا القبيل ينماز شعر فحول الأندلس بتجسيم الخيال.. وإحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحى بها الحضارة، والتصرف في أرق فنون القول واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة وإبداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي.."^٢ ويحدثنا عن فلسفة الجزالة حيث يقرر أن جزالة اللفظ في شعرهم إنما هي روعة موقعة، وحلاوة ارتباطه بسائر أجزاء الجملة..^٣

والحق أننا نلمح أثر الثقافة العربية عميقاً في أشعارهم وهي تبدو في نسب متفاوتة بين الشعراء، حتى نجد أشعار بعضهم معرضاً للثقافة في كل أبعادها تاريخياً وأدبياً وبلاغة وفلسفة، يحشدها الشاعر حشداً ويقحمها إقحاماً ادلاءً بفضله وأعراباً عن ثقافته وتعمقه في فهمها.. وهذا الاتجاه يتمثل لدى عدد من الشعراء ومنهم ابن دراج القسطلي وابن حزم الأندلسي الشاعر الفقيه وسنفرّد الحديث فيهما، وابن عبدون التجيبي الذي اقترن اسمه برثاء دولة بطليوس.

ومن الموضوعات التي اختلفت فيها وجهات النظر وتباينت الآراء حولها، حالة الأدب بعد مجيء المرابطين فقد رأى بعض الدارسين أن سوق الشعر كسدت وأن الشعراء قد دالت دولتهم وأدبرت وذلك لأن المرابطين لم يلتفتوا إليهم، ولم تكن لهم عناية بالشعر، وتأخذ هذه الفكرة أبعاداً ومظاهر واسعة عند مصطفى عوض الكريم يحددها بالشقاق والحرب والكساد والضياع،^٤ ثم لا يلبث أن يجد حال الأدباء مأساة بسبب المرابطين ولا بد للمأساة أن تترك ظلالها، وتتجلى هذه الظلال في أن الشعر غلبت عليه موضوعات جديدة اتسع فيها قول الشعراء وهي: القلق، والزهد، والهجاء، والرثاء،^٥ وأن الموضوعات التقليدية الأخرى تأثرت في ظلال هذه الظروف فتغيرت مساراتها ووجهتها حتى رأى أن مدح المرابطين لم يأت بدوافع الإعجاب بهم وإنما كان ضربة لازب بسبب الظروف

١ تاريخ آداب العرب، ٢٩٧/٣.

٢ نفسه، ٢٩٦/٣.

٣ نفسه.

٤ الأدب الأندلسي في عهد المرابطين، ٤٦، ٥٦.

٥ نفسه، ٧٢، ٥٧.

القاسية التي مرت بأهل الأدب: "كان على الشعراء أن يمدحوا ليعيشوا وإلا فالجوع هو النصيب المحتوم لكثيرين منهم" وقد أصبح الممدوح. كما يرى. بعيداً عن قلب الشاعر بعد أن كان نديمه وجليسه فطالت القصائد بعد أن كانت مقاطيع قصاراً، تظهر عليها حرارة البديهة وإخلاص العفوية واضطر الشاعر إلى حشد المحسنات اللفظية والمعنوية مقدماً بذلك الدليل على فساد ذوق الممدوح وتأثير ذلك في فن الشاعر، وفي هذه الصحراء المجذبة الضئيلة بالإحسان يجد واحات خضراء هنا وهناك، تتمثل في بعض الأعيان من الفقهاء والقضاة الذين قربوا أهل الأدب، وأحسنوا إليهم، وكفكفوا دموع الحرمان من عيونهم.^٢

وهكذا تكتمل صورة الأدب، عند مصطفى الكريم في مظاهرها الشائنة، وأوجهها المتخلفة، كل ذلك بسبب المرابطين، ولا ينفرد هذا الباحث بهذه الآراء عن حالة الشعر والأدب في ظلهم إلا أننا نجده أكثرهم مبالغة في مسخ الصورة وتشويهها، ولعله يتابع في آرائه عدداً من المستشرقين الذين ذرفوا دموع التماسيح، على دولة المعتمد بن عباد بعد نفيه إلى المغرب، ومنهم المستشرق الهولندي دوزي الذي نعت دولة المرابطين بالتخلف الفكري والتأخر الأدبي، وقد رد عليه مستشرق أسباني هو خوليان ريبيرا.^٣ أما الباحثون الآخرون الذين جاءت آراؤهم أكثر اعتدالاً في المرابطين فمنهم أحمد أمين.^٤

من الباحثين الذين رأوا غير هذا الرأي ولم يجدوا. على نحو ما تقدم. تخلفاً في الحياة الثقافية والفكرية في عهد المرابطين مصطفى الشكعة حيث فصل القول في نشاطها ولم يجد في الشعر والنثر تأخراً عما كانا عليه في عهد الطوائف.^٥

واختص مصطفى الزباخ، فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين، بدراسة علمية تحمل العنوان المتقدم.^٦

وبمثل هذا الرأي صدر عبد الله كنون حيث ساق لنا أمثلة على عناية الأمراء المرابطين بنهضة العلم والأدب حيث نبغ في الأدب والشعر أمراء نجد تراجمهم لأول مرة إلى جانب تراجم نظرائهم من الأندلسيين وغيرهم في المجموعات الأدبية المعروفة كقلاند العقيان وذخيرة ابن بسام وغيرهما، ولم يقتصر هذا الولوع بالعلم والنبوغ بالأدب على الرجال منهم بل إن النساء شاركن أيضاً بنصيبهن في ذلك.^٧

وقد ذهب هذا المذهب مصطفى صادق الرافعي حيث لم يجد اختلافاً كبيراً في عهد

١ نفسه، ٧٣.

٢ نفسه، ٧٨.

٣ تاريخ الفكر الأندلسي، ٢١.

٤ ظهري الإسلام، ١٨٠/٣.

٥ مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، ٢٩٥/٢.

٦ الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، سنة ١٩٨٧.

٧ النبوغ المغربي، ٨٠، ٨٢.

المرابطين عن العهد السابق حيث يحدثنا عن يوسف بن تاشفين فيقول: "فانقطع إليه من أهل كل علم فحوله حتى ماجت بهم حضرته، ولم يجد بدأ من أن يتبع سنن من قبله في تجميل الملك بهم، وبذلك اجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من عصور الأندلس".^١

وفيما يلي سنتوقف عند أبرز أربعة موضوعات في الشعر في هذا العصر وهي:

- ١، الغزل.
- ٢، المديح.
- ٣، الرثاء.
٤. الزهد والتصوف.

١٠ تاريخ آداب العرب، ٣/٢٨٥.

المبحث الأول الشعر والشعراء

موضوعات الشعر:

١. الغزل:

تستخدم في هذا الموضوع اصطلاحات أخرى إلى جانب الغزل هي: النسيب، التشبيب، ويتحدد المفهوم في المعاجم العربية على النحو التالي:

الغزل: تحديث الفتيان الجوارى، ومغازلتهم ومراودتهم، والتغزل التكلف لذلك، أما النسيب: فالتغزل بهن في الشعر، والتشبيب مثله يقال شبيب بالمرأة أي قال فيها الغزل والنسيب ويشبب فيها أي ينسب بها،^١ وهو الأفعال والأحوال والأقوال الجارية بين المحب والمحبوب، نفسها.^٢

يتحدث قدامة بن جعفر^٣ عن الموضوع فيحد الغزل على أنه المعنى الذي اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء، ونسب بهن من أجله، فكان النسيب ذكر الغزل، والغزل المعنى نفسه، وهو التصابي والاستهتار بمودات النساء، والنسيب الذي يتم به الغرض هو ما كثرت به الأدلة على التهاك في الصبابة وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة.

والفرق بين هذه الألفاظ الثلاث. لغوياً. محدود لكن الاستخدام الأدبي يوشك أن يحدد بكل لفظة دلالة خاصة^٤ فالغزل هو الاستهتار بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن، وإن لم يتعلق القائل منهن بهوى أو بصبابة أو هو اللهو مع النساء في الشعر أو رقيق الشعر في النساء.^٥

والتشبيب ما يقصد به الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال توخياً لتعليق القلوب، أو هو ذكر الشاعر أيام اللهو والشباب في شعره،^٦ أو هو الإشادة بذكر المحبوب وصفاته وإشهار ذلك والتصريح به. والنسب أثر الحب وتبريح الصبابة فيما يبثه الشاعر من الشكوى، وما يعرض له من محاسن المرأة، قبل المفاجأة بالغرض من الكلام، أو هو ذكر الشاعر خلق النساء وأخلاقهن، ورقيق الشعر في النساء.^٧ أو هو ذكر الثلاثة: المناسب والمنسوب إليه، والأمور

١ لسان العرب، مادة غزل، نسب، شبيب.

٢ العمدة، ١١٧/٢، ١٢٧.

٣ نقد الشعر، ١٤٠.

٤ الغزل في الشعر الجاهلي، ص ١٣، د. أحمد محمد الحوفي، دار القلم، بيروت، د.ت.

٥ معجم المصطلحات العربية، ٢٦٥، د. مجدي وهبة، كامل المهندس، ط٢، مكتبة لبنان، ١٩٨٤.

٦ نفسه، ٩٩.

٧ نفسه، ٤١٠.